المنهج البنيوي

تعريف البنيوية:

لتوضيح مفهوم مصطلح البنيوية لا بد أولًا من الوقوف على الدلالة اللغوية له، فبالعودة إلى المعاجم اللغوية يتبيَّن أنها تحدّرت من بَنى يبْني بناءً، فهي إذن الصورة أو الهيئة التي شُيِّد عليها بناءٌ ما، وكيفية ذلك التركيب. ولا يعني ذلك عملية البناء نفسها أو المواد التي تتكون عملية البناء منها، وإنما تعني كيفية تجميع وتركيب وتأليف هذه المواد لكي نكوّن شيئًا ما ونخْلقه بهدف تأدية وظائف وأغراض معينة.

أما على صعيد المعنى الاصطلاحي الوضعي، فالبنيوية هي النظر في التصميم الداخلي للأعمال الأدبية بما يشمله من عناصر رئيسة تتضمن الكثير من الرموز والدلالات، بحيث يتبع كل عنصر عنصرًا آخَر.

متى وأين ظهرت البنيوية في النقد الأدبي؟

ظهرت البنيوية في نواحٍ عديدة من نواحي الحياة، والذي يهمّنا هنا هو الحديث عن ظهورها في النقد الأدبي.

إن المدرسة البنيوية، أو المنهج البنيوي لم يظهر في الساحة النقدية الأدبية اللغوية إلا في منتصف القرن العشرين، وتحديدًا في فرنسا في عقد الستينات من القرن العشرين، وذلك عندما قام (تودوروف) بترجمة أعمال الشكلانيين الروس إلى اللغة الفرنسيةفي كتاب بعنوان: "نظرية الأدب، نصوص الشكلانيين الروس".

مصارد البنيوية وروافدها:

أول وأهم مصادر البنيوية هي حركة الشكلانيين الروس، والتي ظهرت في روسيا بين عامي 1915 و1930، وقد دعت إلى العناية بقراءة النص الأدبي من الداخل، لأن الأدب من منظورهم يُعدّ نظامًا ألْسُنِيًا ذا وسائط إشارية (سيميولوجية) للواقع، وليس انعكاسًا للواقع. ولذلك استبعدوا علاقة الأدب بالأفكار والفلسفة والمجتمع والتاريخ.

أما المصدر الثاني فـ "هو (النقد الجديد) الذي ظهر في أربعينات وخمسينات القرن العشرين في أمريكا، فقد رأى أعلامُه أن الشعر هو نوع من الرياضيات الفنية [عزرا باوند]، وأنه لا حاجة فيه للمضمون وإنما المهم هو القالب الشعري [هيوم]-، وأنه لا هدف للشعر سوى الشعر ذاته [جون كرو رانسوم].

وأما المصدر الثالث فهو ذيوع صيت علم اللسانيات الحديث، والذي يتقاطع مع المدرسة الشكلانية الروسية، ولعل هذا المصدر هو أهم مصادر البنيوية، ولا سيما "ألسنية دي سوسير" الذي يُعد رائد الألسنية البنيوية، بسبب محاضراته (دروس في الألسنية العامة) التي نشرها تلامذته عام 1916 بعد وفاته. وعلى الرغم من أنه لم يستعمل كلمة (بنية) إلا إن الاتجاهات البنيوية كلها قد خرجت من ألسنيّته، فيكون هو قد مهّد لاستقلال النص الأدبي بوصفه نظامًا لغويًا خاصًّا. وفرّق بين اللغة والكلام:

فـ(اللغة) عنده هي نتاج المجتمع للملكة الكلامية، أما (الكلام) فهو حدَث فردي متصل بالأداء وبالقدرة الذاتية للمتكلم.
وأما المصدر الرابع فهو ما يسمى "حلقة براغ"، وهي حلقة دراسية مكوّنة من ثلة من علماء اللغة في براغ -عاصمة التشيك-، وهذه الحلقة وإن كان زعيمها "ماتياس" إلا أن المحرّك الرئيس لها هو نفسه مؤسس المدرسة الشكلية الروسية "ياكبسون" الذي تنقّل بين روسيا وبراغ والسويد والولايات المتحدة الأمريكية، فكان أينما حلّ بشّر بآرائه، وكان له دَور فعّال في نشر الوعي بالنظرية الجديدة وترسيخها في أوساط المثقفين. ومن هنا التقط علماء حلقة براغ مشعل الدراسات اللغوية الحديثة الذي صب سوسير زيته ونسجتْ الشكلية خيوطه وأخذوا يتحدّثون بشكل صريح متماسك عن بنائية اللغة.

هل تختلف البنيوية عن الشكلانية؟

لا شكّ أنّ ثمة فرقًا بينهما، فبالإمكان رصد نقاط الاختلاف بينهما، والمتمثلة أساسًا في كون الشكلانية وضَعتْ "أسُس الاختلاف بين الشكل والمضمون داعيةً إلى الاعتناء أكثر بالشكل على حساب المضمون، أما البنيوية فقد حاولت دمج الشكل في المضمون والدالّ في المدلول (المعنى)، لأن الدال الواحد لا بد أن يُنتج مدلولات مختلفة بالنسبة لشخصين أو متلقّيَين اثنين مختلفَين حسب التجارب الفردية. وعليه يصير النص واحدًا والقراءات متعددة".

أعلام النقد البنيوي:

من أعلام النقد البنيوي في الغرب: رولان بارت، وتزفيتان تودوروف، وجيرار جينيت، وبليخانوف وغيرهم.
أما في العالم العربي فمِنهم على سبيل المثال لا الحصر: حميد الحميداني، وصلاح فضل، ومحمد مفتاح.
يُذكَر أنّ مِن أوائل الذين عُرّبت مؤلفاتهم، هو جان ماري أوزياس، فقد تم تعريب كتابه "البنيوية" على يد ميخائيل مخول، ونشرته وزارة الثقافة السورية عام 1972. وهو أول دراسة شاملة عن البنيوية تُرجمت إلى اللغة العربية. والكتاب يقع في قسمين: قسم أوّل عرّف فيه بالبنيوية، وعلاقتها بالمجال الحيوي، وبعلم اللغة، وبعلم العلامات والإشارات والدلالات. كما عرّف بروّاد البنيوية في مجالات اختصاصهم: شتراوس الأنثربولوجي، وفوكو الابستيمولوجي، ولاكان النفساني، وألتوسير الماركسي. وأما القسم الثاني فقد جمع دراسات لبعض أعلام البنيوية: شتراوس (يرد على الأسئلة)، وجيرار جينييت (في النقد البنيوي)، وبول ريكور في (البنية والتفسير)، وجان بويون في (سارتر وشتراوس)، ولوقاد هوش في (الانثروبولوجيا البنيوية).

هدف البنيوية:

لقد وضع البنيويون نصب أعينهم غاية كبرى تتمثل في دراسة أبنية العمل الأدبي وعلاقات بعضها بالبعض الآخر، وكيفية أدائها لوظائفها الجمالية، واختبار لغة الكتابة الأدبية عن طريق رصد مدى تماسكها، وتنظيمها المنطقي والرمزي، ومدى قوتها وضعفها بصرف النظر عن الحقيقة التي تعكسها.

وقد رفعوا شعارًا عريضًا وهو: "النص، ولا شيء غير النص" أي البحث في داخل النص فقط عما يُشكّل أدبيته -أي طابعه الأدبي-. وقد حاولوا من خلال ذلك علْمنةَ الأدب، أي إضفاء الطابع العلمي الموضوعي على عمَلِية الاشتغال عليه، بقصد تجاوز الأحكام المغرضة والإيديولوجية التي قد تشوّه هذه الممارسة النقدية -بزعمهم.

مبادئ البنيوية:

إن أبرز المبادئ التي قامت عليها البنيوية هو مبدأ أنّ "الأدب نصّ مادّيّ تام منغلق على نفسه"، أي أن دراسة الأعمال الأدبية عملية تتم في ذاتها، بغض النظر عن المحيط الذي أنتجت فيه؛ فالنص الأدبي منغلقٌ في وجه كل التأويلات غير البريئة التي تعطيه أبعادًا اجتماعية أو نفسية أو حتى تاريخية، ومادّيٌّ في كونه قائمًا على اللغة أي الكلمات والجُمَل. بالإضافة إلى ذلك هناك مبدأ مهم نادى به رولان بارت ألا وهو قوله: "اللغة هي التي تتكلم، وليس المؤلف" وذلك حين ضمَّن هذا التصور في مقالته «موت المؤلف» من كتابه «نقد وحقيقة»؛ وهذا يعني إلغاء شخصية الكاتب لكي يتولّد المعنى بعيدًا عن كل المؤثرات الخارجية. على أنّ بعض الدارسين يعدّ هذه المقالة من أوائل مراحل ما بعد البنيوية.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن البنيوية لا تُعنى بالمعنى بالدرجة الأولى بقدر ما تُعنى بآليات إنتاجهِ وخَلْقِهِ، فـ"البنيوية تنطلق من نقطة وجود المعنى كأمْر مسَلَّم به مفروغ منه، ومن ثم تتحول عن دراسة المعنى إلى آليات خلْق المعنى حسب قواعد علمية، وهذا ما أشرنا إليه باعتباره تجاهلًا تامًا للمعنى".